حكاية القطار

نزار عباس

في السجن، وقبل أن يخرج بليلة واحدة، التقاه، عانقه. وبعد عبارات مليئة بلوعة الفراق، بعد صحبة طويلة، قال له: «اسمع، ستخرج من السجن الصغير، لتدخل السجن الكبير». وقال له أيضاً: «لا يشغلك شيء عن هموم الوطن».

قال لنفسه: «محمد المحمود رجل كبير، ولكنّ مشكلته أنه يحبّ العبارات الجاهزة والوصايا!» ابتسم وهو ينظر إليه، ثم يبتعد عنه ليودع بقية الأصدقاء.

في «السجن الكبير» وجد العائلة الفقيرة والغلاء والبطالة. وبصعوبة، وجد عملاً: كاتباً للحسابات في شركة صغيرة، تبيع أدوات كهربائية بالتقسيط. وكانت السنوات تمرّ، والعملُ من الصباح إلى المساء يهدُّ قواه، والأرقام أتلفت عينيه. ولكنه كان يجد راحة صغيرة، حين يخرج بعد انتهاء العمل، ليدخل الحانة القريبة، «حانة الصفاء»، ليتناول كأسين أو ثلاثاً، فيتخدّر قليلاً ثم يذهب إلى البيت، ليأكل لقمة وينام.

واستمر أعواماً على هذه الحالة.

في تلك الحانة، التقى ذات ليلة بأحد رفاق السجن، فأخبره بأنّ محمد المحمود قد خرج قبل انتهاء موته، وأنّه سلَّم كلَّ ما يعرف..

ابتسم بألم، وقال لنفسه: «إنها القصة التي لا تنتهي.. هو القطار يتوقف مرة أخرى!»

لعن الساعة التي التقى فيها بالمحمود. فلقد كلَّفَتْه أجمل سنوات العمر. طلب كأساً أخرى، ثم خرج يجرُّ رجليه في شوارع المدينة التي حلم يوماً بأن يحيلها إلى جنة وارفة.

بعد أيام من هذا اللقاء، وحين رفع رأسه عن دفتر الحسابات الذي يغطي المائدة، وجد أمامه محمد المحمود. عانقه ببرود واضح، ثم دعاه للجلوس.

قال المحمود بعد ثرثرة عن أيام السجن: «إنّ صفحةً قد طُويتْ، وعلينا أن نعمل من جديد، فهل أنت على استعداد؟»

استرجع ما سمعه عنه، وتساءل مع نفسه: «أهو فخّ جديد، أم أنّ ما سمعه كان مجرد أكاذيب»؟

نظر إليه بتمعن، كأنه يراه للمرة الأولى، كأنه يريد أن يعرف الحقيقة. ولكنْ هل تهمه هذه الحقيقة؟ التفت إلى ناحية الشارع الذي يضجُّ بالناس والذي يفصله عنه زجاجُ الواجهة الرقيق، وأشار بيده إلى المارّة وقال: «لست على استعداد لتسليم هؤلاء»...

قال المحمود: «لم أفهم».

أجابه: «لستُ أقوى منك، وكنتَ مثَلي الأعلى!»

أحنى المحمود رأسه قليلاً وقال بصوت منخفض: «للجسد حدودٌ للتحمل!»

أجابه: «أستطيع أنا أيضاً أن أكرِّر هذه العبارة.. ثم إذا كان الأمر كذلك، فلماذا العودة؟»

رفع المحمود رأسه، واضعاً ابتسامة على وجهه، وقال: «سمعتُ أنك ترتاد حانة الصفاء».

قال: «أجل، كل يوم. أدعوك هذه الليلة إلى كأسٍ فيها».

خرجا معاً، وكان الليل يُطْبق على المدينة.

في الحانة، تحدَّثا طويلاً عن السجن الكبير والصغير وأضافا إليه سجن العائلة. ثم اتفقا في النهاية، كصديقين قديمين، أنهما قدَّما كُلَّ ما يستطيعانه، وأنَّ ما قاله أحدُ الروّاد يبقى صحيحاً: «إنّ القطار يتجه إلى أمام، ويواصل السير ولو نزل منه هذا الراكبُ أو ذاك، في تلك المحطة أو تلك».

بغداد

صفعة بهلول

محمود عزوز

... واختلس النظر إليهم. كانت أطرافهم تتوتر انفعالاً وحماسة، وعيونُهُم تسكنها لهفة غريبة. هو الذي لم يضرب أحداً قطّ، ودأب منذ الصغر على مهادنة خصومه، بل كاد من فرط طيبته أن يستجدي الظلم لنفسه في كثير من الأحيان؛ فقد كان يتشبّث بثياب أقرانه يتلقى لكماتهم وركلاتهم في وجهه بـ «الروسية» حتى يشرّ منه الدم، ويظل ممسكاً بخناقهم يأبَى تركها الا إذا كفوا عنه.

رفع في الهواء يداً خشنة ثقيلة كمطرقة، فخفق قلبه بقوةٍ والتقتْ لأول مرة العينُ بالعين. راعته هيبته ووسامتُه وعيناه الزرقاوان وأنفُهُ المسحوب إلى الأمام بغير غلظة ولا ضخامة. وكانت عباءته من الصوف المعتبر، تفوح منها رائحة المسك. تذكر عمره الطويل الذي مرّ دون أن يجرؤ على النظر إليه. قال إنّ ابن الأكابر لا تخطئه العين الذي مرّ دون أن يجرؤ على النظر إليه. قال إنّ ابن الأكابر لا تخطئه العين حتى لو لم تَحْظ برؤيته من قبل. حبس الجميع أنفاسهم وترددت نظراتهم بين الاثنين. تسرب الخوف الى يده وأصابها بالشلل فظلت معلقةً في الهواء، بينما الخد الأملس ينتظر صَفْعَهُ...

ـ نَزِّلْ إيدك يابن ستوته، الكبير كبير بَرْضُه.

صاحتْ أمّ عبّود بصوتها المبحوح بعد أن ضاقت ذرعاً بالمهزلة على حد قولها التي واكبتها حتى بلغتْ ذروتها وصار

حرّياً بها أن تشارك فيها. وكأنما المشانق أقيمت على أعناق الرجال فانعقدتْ ألسنتهم ولاذوا بالصمت، لكنّ «جباراً» عاجلها بصوت الأجشّ المتوعد:

ـ اخرسي يا وليّه يا خرفانه!

لو أنه أخذ الموضوع على محمل الجد والاكتراث منذ بارح بيت ابن مندور، لو أنصت الى حديث أولاده المفعم بالحرارة والحماس، لثارتْ حميَّتُهُ الآن واستُنفرتْ رجولتُهُ وبادر إلى ردِّ الصفعة بمثلها. ترى أتكفي صفعةٌ واحدة؟! تراه ينساها أم يُضمر له شراً؟ لو ينفضّ الجمع ويتفرق، لو تنشق الأرض وتبتلعه! ما له لا يشعر أنّ ثمة إهانة لحقتْ به أو أنّ رغبة في الثأر يشتعل بها صدره؟

ينتظرون على نار وقد احتواهم الصمتُ العميق. أمه المقعدة تربَّعتْ على المصطبة تكركر بالجوزة وتحدجه بنظرات ثاقبة، وتسحب أنفاساً عميقة فيغيب لحمُ خديها الضامرين بين فراغات أسنانها الثرمة. يروغ منها فيصطدم بعين ابنته البكر «فطومة». وراءها توارتْ أختاها في خجل. بأيّ وجه يلقاهنّ؟ وأيّ عذر يبرر عجزه وتردده؟ هل يخبرهنّ أنه لم يشعر يوماً أنّ ثمة كرامة له، وأنّ السياط التي ألهبتْ ظهورَ أجداده ما زالت ماثلةً لعينيه محفورةً في الذاكرة؟ هل يقدِّرْن حرجَ مركزه؟ أم يَثُرن في وجهه من جديد؟

ـ كَبرْنا يابا مرة بين الناس.

ينظر في الوجه الأمرد، يتفرس فيه ببلاهة وبرود. يمسح بيده الأخرى وجهه المعفّر، يتساقط العرق منه. رائحة عرقه تزكم الأنوف. يتحسس شعر لحيته الكثيفة وشعيراتٍ أخرى دقيقة نمتْ بوفرة تحت عينيه. فانلَّتُه يعلوها الغبار، وتَبين مزقٌ تحت إبطه، فيما تدلتْ من سرواله الواسع «سلبة» طويلة. يتذكر الباشا الكبير فترتعد فرائصه. الخوف بداية ونهاية، والجسد مدكوك رَبْعَة، والجبهة عريضة، واحمرار الوجه إنْ نمّ عن موفور الصحة والعافية فإنّه يداري غضباً يكاد ينفجر. ابتسامة غريبة تعترض طريقه، أهي رضا وقبول أم غرور وسخرية؟! ترحيب أم تحدٍ ووعيد؟!...

إنه لم يسع إليها، إلى ضربته الأولى، بل فرضتها عليه أولادة جبار وعابد وعز الرجال. الزموهُ الصمت في بيت ابي مندور رافضين أن يتنازل عن حقه هذه المرة حيث «حق عرب» أقيم على الباشا حشمت الذي قبل به بين دهشة الحضور. حصار العيون يضيق عليه، والمواجهة باتت حتمية كأنها القدر. لن تجديه نفعاً تلك الكلمات المتضرعة التي كثيراً ما برع فيها حتى لو فاق نفسه من دَبْجِها الآن. استقرت عيناه في حدقتي غريمه، فرأى سماء زرقاء صافية ممتدة بغير حدود. حاول أن يتذكر لون عينيه. صور تنبش ذاكرته، تمرق خاطفة، يركض وراءها ليرجع حائراً فاتر الرغبة في الخلاص. يبرم بين أصبعيه شعراً نافراً من فتحة منخاره، ثم ينزعه بقوة فيوخزه الألم. الماضي ذكرى أليمة لا تني عن وخزه، الفلقة، الكرباج السوداني، شجرة الجميز العتيقة التي ما زالت قائمة عند مدخل السراي، والسراي أعيد طلاؤهُ هذه الأيام. هناك عُلِّق أبوه من يديه ورجليه. شاهده بعينيْ رأسه وكان غضاً غريراً. أُلهبتْ مؤخرته ووُرِّمتْ قدماه. حملوه الى البيت. كان الباشا الكبير يقهقه عالياً وهو يفرقع بالكرباج في الهواء. وكان أبوه يردد قول أحدهم في استسلام وسخرية:

ـ نعم، نعم، كرباج الباشا شرف لنا!

أياماً طويلة قضاها طريح الفراش يحمله اثنان لقضاء حاجته. رده ثابت لا يتغير مثل قسمات وجهه الحزينة:

ـ كان نفسي أشوف ايه ورا السور!

اليد المرفوعة في الهواء استحالت وصاحبَها تمثالاً من الثلج. غير أن الصرخة المخنوقة من الأعماق، تلك التي طالما أنَّتْ بها روحُهُ عبر مواقف بلغ الإذلال فيها مداه، آخذة في الامتلاء والكبر رويداً رويداً منذرةً بانفلاتها. ماذا لو ثار مرةً واحدة في حياته؟ رغبة دفينة راودته كثيراً مثل حُلم. لن تكون مجردَ صفعة. آن لصولة غضبه أن تُحتسب وتُعتبر. سيذكرونه بالخير، بالصفعة التي أطاحت بوقار الباشا فانفرط عقد الناخبين من حوله وضاع كرسيُّ البرلمان. وعلى أية حال فالباشا حشمت ليس بباشا، إنه مثل الباشا فتح الله والباشا شاهين والباشا ربيع المخبر و...

ـ خذها مني يابن الأكابر!

واستطرد وكفه تفرقع على الخد الناعم:

ـ أنا بهلول ابن ستوته!

استقرّ فوق سواعدهم يهللون ويهتفون باسمه. خلعوا عليه صفات كثيرة، ونَعَتَهُ أحدُهُم بالرجل الحرّ. داروا به. تداخلتِ السماءُ والأرض والبيوت والأشجار والأجساد والعيون حتى تصوَّرَ أنّ العالم قد خلا إلا منه. لكنْ عندما حطُّوا به راح يمسح المكان بعينيه ولم يشعر إلاّ بكفه وقد احتضنتها إحدى بناته وأخذتْ تطبع عليها قبلات محمومة تردد صداها.

ـ عفارم عليك

ـ ينصر دينك

ـ سلمت يداك يا رجل

حك جبينه بيده ثم استسلم إلى مديح ما كان يحلُم به..

الإسماعيلية ـ بيروت